عبد الرحمن الداخل

(٢)

بينا كان ابن معاوية يوطد نفوذهُ في الغرب ويهتم بفصل الاندلس عن سلطة الخلافة وجعل قرطبة بلداً وسيعاً عظيم الشأن كان الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي (٧٧٥ — ٧٥٤) يخاف ان تزاحم الاندلس سلطانهُ ولذا امر والي القيروان العلاء بن المغيث اليحصبي ان ينزل بالاسطول الشاطئ الغربي من اسبانيا ليمين الثائرين واكثرهم من اصحاب المطامع من فل جيوش يوسف الفهري والبربر وان يعلن ان خليفة رسول الله واحد وجبت الطاعة لهُ . وبعد ان نزلها ثار بباجة (٧٦٣ م) ودعا اهلها ومن حولهم فاستجاب لهُ الفهريون وحاصروا عبد الرحمن بقرمونه Carmona لكنهُ هاجمهم فهزمهم وقتل من دعاة العباسيين ما ينيف على سبعة آلاف وارسل برؤوس كثير منهم الى مكة ايام موسم الحج . ولما نمي الى المنصور ما حلَّ بالمغيث وجنده صرخ « الحمد لله الذي بيننا وبينهُ البحر » (١)

إن اهمية هذا الانتصار كبيرة اذ جعلت العباسيين ان ينظروا الى الاندلس بعين الرهبة والنظير الى النظير وفي ذلك ما فيهِ من اعترافهم باستقلال الاندلس عن المملكة العباسية في المشرق وان لم يعترفوا بذلك رسمياً

وقد كان نجاح عبد الرحمن يرجع الى سببين اولهما تفرق كلمة هؤلاء الزعماء وعدم اشتراكهم يداً واحدة من اجل مقصد واحد وثانيهما سياسة عبد الرحمن الرشيدة الصائبة وحركتهُ المتواصلة وعقابهُ الشديد فانهُ حين ثار ابن الصباح زعيم اليمنيين طالباً ان يكون الامر لعشيرتهِ فتك بهِ في قصرهِ بقرطبة بعد ان وبخهُ . دلنا على مأرب ابن الصباح هذا قولهُ بعد الانتصار في معركة الصارة وهو « يا معشر يمن هل لكم الى فتحين في يوم . قد فرغنا من يوسف وصميل فلنقتل هذا الفتى القدامة بن معاوية فيصير الامر لنا نقدم رجلاً منا ونحمل عنهُ المضرية » (٢)

---

(١) المقري الجزء الثاني صفحة ٦٧ Dozy الجزء الاول صفحة ٣٦٧ Scott الجزء الاول صفحة ٣٩٩ — ٤٠٠

(٢) المقري الجزء الثاني صفحة ٦٦ Dozy الجزء الاول صفحة ٣٧٠ ترى خبر ابن الصباح

فتدارك عبد الرحمن الامر بنفوذه واسرّها بنفسه الى ان اغتالهُ

لم يكد الامير انشاب يدرأ ثورة اليمنيين حتى قام البربر بقيادة احد معلمي الصبيان المسمى شاقيه ويدعوهُ ابن خلدون شقنا [1] يضربون في البلاد الفوضى وقد ادعى انهُ من نسل الحسين بن فاطمه وتلقب بعبد الله بن محمد وكان مركزهُ بين التاج والكوادينا Guadiana . انهُ في اول امره نجح نجاحاً باهراً ومما يذكر انهُ احتل ماردة وكوريا وسنتيريا Meddelin, Coria, Sontébria وكسر الجيوش التي نازلتهُ لتأديبهِ واخضاعهِ . اما حصنهُ الحصين فكانت الجبال اذ هي ملجأهُ حين حاول عبد الرحمن مناجزتهُ وقد ظلت ثورة البربر هذه مشتعلة نحواً من عشر سنين ولم تخمد الاّ بقتل شاقيه غيلة قتلهُ احد رجالهِ

إن الثورات التي قضى عبد الرحمن معظم عمرهِ في اخمادها هي على انواع ثلاثة النوع الاول ينحصر في القلاقل التي احدثها حزب يوسف واشياعهُ والثاني في المطامع والمصالح التي كانت تختص بزعماء الاحزاب والقبائل والثالث وهو النوع الغالب في الدعوة للخليفة العباسي وكانت اشدها خطراً . ومن هذا القبيل الاخير المعاهدة التي قضت على سليمان العربي حاكم برشلونه وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الملقب بالصقلبي وابي الاسود بن يوسف الذي تم لهُ الفرار من السجن ان يتحدوا ويطلبوا مساعدة شارلمان الكبير وذلك انهم في سنة ٧٧٧ م ذهب هؤلاء الى « بادربورن » Paderborn [2] وعقدوا المعاهدة الدفاعية الهجومية ضد عبد الرحمن وقد اعلنوا الطاعة للخليفة العباسي حتى ان الصقلبي حمل رايات السودة وان اضمروا ما ينزعون اليهِ حقيقة من حب الاستقلال

وكان شارلمان هذا امبراطوراً للمملكة التي امتد سلطانها على فرنسا والمانيا وايطاليا وهو من العائلة الكارلوفنجية Carlovingian وابن بين Pippin وحفيد شارل مارتل . وجل ما يرمي اليهِ ان يجعل تحت نفوذهِ المملكة الرومانية الغربية فغزا بين سنة ٧٦٩ وعام ٧٧٨ اكويتانيا وحمل حملات شديدة على السكسون واللمبارديين لكنهُ كان ينظر الى اسبانيا نظر المتحين الفرص حتى لا يجعل من

(١) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢٣

(٢) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٧٧ و Coppé الجزء الثاني صفحة ١٣١ و Scott الجزء الاول صفحة ٤٠٣

العرب عدواً لدوداً يهدد امبراطوريتهُ ويتخطى البيرنيه كما فعلوا ايام جدهِ شارل مارتل لاسيما والشعوب التي تتألف منها مملكتهُ كامثال السكسون والهون والسلاف واللمبارديين اقوام شديدو المراس لا يخضعون الاَّ لليد القوية الشديدة وذلك مما لا ينسى لهُ ان لم يؤمّن حدودهُ الجنوبية واعني بها البيرنيه . على انهُ كان هناك ايضاً عامل آخر دفعهُ على التعاقد مع الثائرين وهو حفظ النصرانية في اوربا من دين جديد بدأت طلائعهُ تسري في اسبانيا [1] ولذا صمم على ان يجعل قسماً من التافار وكاتلونيا والارغون حدًّا اسبانياً Spanish March او دويلات حرة يحكمها اصدقاؤهُ الثائرون برعايتهِ

في ربيع سنة ٧٧٨ اخترق شارلمان البيرنيه عن طريق المضايق التي يطلق عليها اسم Roncesvalles وقد ظل زاحفاً الى ان اتى بامبلونة فاحتلها دون مقاومة ولكنهُ لم يكد يصل الى سرقسطة بجيوشهِ الاَّ واقفل المسلمون بقيادة حسين بن يحيى ابواب المدينة [2] وهي مركز حربي كبير اذ منها تتشعب طرق المواصلات الى الانحاء المختلفة فعبد الرحمن كان ينظر اليها كجزء متمم لمملكتهِ الاسبانية وشارلمان يرى فيها المحطة التي يهدد بها اسبانيا ويضربها . لكنهُ لم يكد يحاصرها حتى وافتهُ الاخبار بثورة السكسون يقودهم وتكند Wittekind [3] وتقدمهم الى Dentz تجاه تولون فأُجبر على التقهقر من الاير الى الرين بحال تعسة والبكشنس Basques كانوا قد كنوا لهُ في الحراج والمنعطفات الصخرية وهاجموهُ فافنوا مؤخرة جيشهِ عن بكرة ابيها وكان يقودها رولاند. وممن حمل ايضاً على جيشهِ غاسقونيّو فرنسا واسبانيا وجند بلاي Pelayo القائد الذي اسس بشرذمتهِ الصغيرة في ضواحي Covadongi القوة الاسبانية التي استردت من العرب الاندلس وطردتهم منها فيما بعد. وكانوا يرمونهم بالصخور والحجار الضخمة ويقول كوبه Coppé [4] ان بعضاً من القوى العربية ساعدت على هلاكهم

ان اسم رولاند خالد لما صيغ فيهِ من جميل الشعر والخيال في بطون الكتب

(١) Coppé الجزء الثاني صفحة ١٢٣ — ١٢٤ Scott الجزء الاول صفحة ٤٠٣ — ٤٠٥
(٢) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٧٩ (٣) Huart Histoire des Arabes الجزء الثاني صفحة ١٤٧ Dozy الجزء الاول صفحة ٣٧٩
(٤) Coppé صفحة ١٣٥ — ١٣٦ الجزء الثاني

الادبية الاوربية ولا شبهة ان اخبارهُ فيها شيء من الغلو الوصفي الروائي مما لا يقبله التاريخ

وكان عبد الرحمن يشاهد عن بعد تمثيل المأساة التي اتى بها شارلمان الاَّ انهُ سار اخيراً الى سرقسطه واخضعها وقتل الحسين بن يحيى الذي حدثتهُ نفسهُ بالوثوب اما الثائرون فقد اختلفوا بعضهم مع بعض فقتلك ابن المرابي بالصقلبي كما ان الاول مات مقتولاً في جامع سرقسطه

ونتيجة هذه الحملة ان شارلمان اسس التخم الاسباني الذي تاقت نفسهُ اليهِ وكان يضم البلاد الواقعة على جانبي البرنيه وهي تنقسم الى مقاطعتين كبيرتين غاسقونيا وسبتمانيا Septémanie

ولما كانت قوضى الاحزاب قد تفاقم ضررها صمم على اخمادها واضعاف سلطتها ونفوذها فأحسن الى العوام ودعا الموالي وجمعهم حولهُ واتخذ المماليك واعتضد بالبربر فأحسن لمن وفد عليهِ من افريقية احساناً كبيراً وجعل منهم جيشاً يتراوح بين الاربعين الفاً والمائة الف[1] حين الحاجة الشديدة. وكان اخلاص هذا الجيش شخصي اكثر منهُ قومي لانهُ صنيعة عبد الرحمن فباسمهِ كان الجند يدافع لا باسم البلاد وظل مدة ثلاثين عاماً وهو يحاول اصلاح اسبانيا وجمع كلمتها داخلياً والاعتراف بقوتها في الخارج فنجح وثبت اما م رجلين خضع لسلطانهما العالم المعروف يومذاك وهما شارلمان وابو جعفر المنصور . واسس مملكة مطلقة قسمها الى ست مقاطعات يحكم كلاً منها امير عسكري وكان يعضده في امورهِ القضاةُ والولاة ويرسلون تقاريرهم الى الديوان بقرطبة[2]

اما البريد فقد جعل لهُ محطات وفرساناً تختص بهِ وسار شوطاً جليلاً في عمران قرطبة فبنى اسوارها وشيد رياضها على الطريقة الدمشقية واصلح طرق المواصلات الرومانية وبنى داراً لضرب النقود . واختط مدينة الرصافة على شمالها

---

(١) المقري الجزء الثاني صفحة ٦٧ Dozy الجزء الاول صفحة ٣٨٨ Coppé الجزء الثاني صفحة ١٥٢ (٢) Scott الجزء الاول صفحة ٤١٠

لقد صرح دوزي وكوبه والمقري وسكوت ان جيش عبد الرحمن كان نحواً من اربعين الفاً ويزيد على ذلك المقري وكوبه انه كان يجاوز المائة الف احياناً وهذا طبعاً ايام الحروب

وهي على طراز رصافة الشام التي كانت مدكاً لجده هشام وسماها باسمها تشبيهاً بها[١] واحاطها بالجنان وزرع فيها طيب الشجر كالمشمش والرمان والنخيل[٢]. وكان بلاطه على نسق بلاط لذريق في الابهة. وقد شمر بوجوب بناء مسجد جامع في قرطبة ليحول انظار مسلمي اسبانيا عن الاراضي المقدسة في الشرق فلا تؤثر فيهم روح الثورة والفوضى التي كان يبثها اهل الدعوة العباسية ايام مواسم الحج في الحجاز ولذا ابتاع الكاتدرائية من مسيحيي قرطبة بمائة الف دينار وحولها الى مسجد ضاهى حسنةُ المسجد الحرام والمسجد الاقصى[٣]

وكان عبد الرحمن يلقب بالامير وعليهِ جرى بنوهُ بعدهُ فلم يدعَ احد منهم بامير المؤمنين حتى كان عبد الرحمن الناصر فتسمى بالخلافة وتوارث ذلك بنوهُ واحداً بعد واحد[٤]. انهُ لم يقدم عليها وهو ابن الخلفاء نظراً للحال الشديدة في اسبانيا التي كانت تهددهُ دوماً بمواصف الهياج وبراكين الثورة. وكيف بهِ اذا ادناها فانهُ ولا شك يجعل للزعماء اصحاب التفرد عذراً في العصيان. وقد اهملها ايضاً تأدباً مع الخلافة بمقر الاسلام سيما والخلافة العباسية موطدة الاركان قد اعترف بها الاسلام باجمعهم كما وان خليفة رسول الله واحد لا اثنان. يؤكد لنا ذلك قول المقري ان الناصر بعد ذلك لم يتسمَّ بها « الاَّ حين التاث امر الخلافة

---

(١) انظر تحت كلمة رصافه ياقوت الحموي معجم البلدان (٢) ومن جميل شعره يصف نخلة في الرصافة قوله :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول اكتئابي عن بني وعن اهلي
نشأت بارض انت فيها غريبة فذلك في الانصاء والمتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المتأى الذي يصح ويسقي الساكبن بالوبل

المقري الجزء الثاني صفحة ٧٦

ومن نظمه ما كتب به الى اخته بالشام يتشوق الى مشاهدها قوله :

ايها الركب اليمم ارضي اقر مني بعض السلام لبعضي
ان جسمي كما تراه بارض وفؤادي ومالكيه بارض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا فعسى بالجماعنا سوف يقضي

المعجب في تلخيص اخبار المغرب صفحة ١٠ المقري ج ٢ صفحة ٦٨ و٧٦

(٣) Scott الجزء الاول صفحة ٤ (٤) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ٢٢

بالشرق واستبد موالي الترك على بني العباس وبلغهُ ان الخليفة المقتدر قتلهُ مؤنس المظفر مولاهُ »(١)

ان عبد الرحمن زرع جرثومة العلم الطيبة في الاندلس فاسس المدارس التي كان يعلم بها الفقه والشريعة والطب والطبيعيات والرياضيات والادب والشعر وبنى المستشفيات قرب المساجد ومن ذلك الحين أخذت الفنون الجميلة والعلوم والاداب تزهو وتزداد الى ان اصبحت اسبانيا من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر قلب المدنية في العالم(٢)

عبد الرحمن الطريد اتى اسبانية فوجد ان لا امة اسبانية فيها ذات عادات واحدة وتقاليد واحدة واخلاق واحدة بل كان هناك خليط من الامم كالرومان والاسبانيول والقوط والتورمانديين والعرب والبربر لا جامعة قومية تجمعهم ولا مصلحة مشتركة تدمجهم ولا عقلية واحدة تسيرهم فكان جل ما رمى اليهِ ان يجعل منهم كتلة واحدة ولذا قضى زهرة شبيبتهِ في قمع الثورات واعدام الزعماء . ولقد كلفهُ ذلك دماء غزيرة فكان ظالماً جباراً منتقماً لا يرحم. ان لم يقتل خصمهُ في ساحة القتال قتلهُ سرًّا في سبيل هذه الغاية. وقد فتك بكثير ممن اعتمد عليهم في تشييد دولتهِ فتق بدراً مولاه وحجز املاكهُ وبعضاً ممن وفدوا عليهِ من اهله وهؤلاء من الذين اضجعهم ابن معاوية في مهاد الامن والنعمة فنازعوه . واكثر جموع حزبهِ الاموي واستقدمهم اليهِ من الشام ومصر والمغرب

ولقبهُ المنصور العباسي « بصقر قريش »لانهُ عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً اعجمياً مفرداً فمصّر الامصار وجند الاجناد ودون الدواوين واقام ملكاً بعد انقطاعهِ بحسن تدبيرهِ وعبد الرحمن منفرد بنفسهِ مؤيد برأيهِ مستصحب لعزمهِ(٣)

ان عبد الرحمن برهن على انهُ رجل الحكومة الداهية ونظير شارلمان والمنصور(٤) . انهُ لم يكن لينتقم انتقاماً اعمى حين استتبت لهُ الامور . ولم تكن عظمتهُ وراثية بل مكتسبة فهو رجل عصامي بنى عرشاً من لا شيء وقد منع

(١) الفخري الجزء الاول صفحة ١٦٥ (٢) Coppé الجزء الثاني صفحة ١٦٢
(٣) العقد الفريد جزء ٣ صفحة ٢٠٢ لابن عبد ربه . الطبعة الجمالية ١٩١٣ ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢٢ تجد النكرة ذاتها (٤) Encyclopedia of Islam الجزء الاول صفحة ٥٣

فوضى الاحزاب بعد وفاته اذ اخذ البيعة لابنه هشام ثالث ابنائه من مجلس شوراه وخطبائه وولاته وبذلك اسس عائلة ملوكية تدير دفة الاندلس بدلاً من ان يتنازع على امارتها الزعماء والاجناد . ومما يذكر ان عبد الرحمن جمع من امته كتلة واحدة بينما لم يضاهه شارلمان في لم شعث مملكته الوسيعة

كان عبدالرحمن يلبس البياض ويعتم بعمة بيضاء يسمع للعامة ظلامتهم ويخطب بالناس يوم الجمعة . انهُ كان عظيماً كسياسي وكجندي وكمدن وقد دعاه رودريك الطليطلي بالعادل(*) انيس زكريا النصولي

رحلة الى واحة سوى

كتب الماجور بليك في مجلة الدسكفري واصفاً رحلة رحلها الى واحة سوى مع جماعة غرضهم الضرب في صحاري مصر راكبين اتوموبيلات فورد فقال ما خلاصتهُ

كنا تسعة ومعنا ثلاث سيارات وقد نزعنا كبابيتها واقمنا على كلٍّ منها سطحاً مستوياً واخذنا في كل سيارة بنزيناً يكفيها لسير الف ميل وماء وطعاماً وسلاحاً وما يلزم للنزول والنوم . وفي المرحلة الثانية أضيف الينا بدوي اسمه سليمان ليكون دليلاً لنا

قمنا من الاسكندرية عند الفجر ووجهتنا مرسى مطروح وهو على نحو ٢٠٠ ميل غرباً والطريق اليهِ مطروق وهو المعروف بالسكة الحديدية . وكان للملكة كليوباطرة قصر في مرسى مطروح كانت تختلف اليهِ قصد الراحة ولا تزال آثارهُ باقية الى الآن

بلغنا مرسى مطروح الساعة السادسة مساء فقطعنا ٣١٠ كيلو مترات في ١١ ساعة ونصف ساعة ومنها المدة التي قضيناها في تناول الغداء . ولم نشاهد في هذا الطريق شيئاً يستحق الذكر . فان البلاد قفر قليل النبات وفيه قليل من خيام البدو

وقمنا قبل الفجر في اليوم التالي وسرنا جنوباً مسافة ٢٥٠ ميلاً في قفر بلقع لا يرى فيهِ غير الحجارة والصخور ورجم نصبتها القوافل اعلاماً لها وعظام الجمال التي نفقت في الطريق وهي ادلة يهتدى بها في السير . وخرجنا من هذا القفر الى

(*) Coppé الجزء الثاني صفحة ١٦٩